



مقدمة:

المعدن الأصيل يبقى أصيلاً لا تغيره الظروف ولا الشدائـد، بل إنه يزداد أصالة وخيريةً عند الشدة، فيوسـف عليه السـلام لما كان في السـجن قـيل له: (إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) (يوسف:36)، ولـما تـولـى خـزـائـن مـصـر قـيل له: (إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) (يوسف:78).

فالطـيـب طـيـب على الدـوـام، لا تـغـيرـه المـنـاقـب والمـنـاصـب والـأـزـمان.

ما أحـوجـنا اليـوم وـنـحنـ في ضـيقـ منـ أـمـرـنـا وـشـدـةـ منـ عـيـشـنـاـ أـنـ نـكـونـ إـخـوـةـ مـتـحـابـيـنـ يـؤـثـرـ بـعـضـنـاـ بـعـضـاـ عـلـىـ نـفـسـهـ وـيـقـدـمـ حاجـةـ غـيـرـهـ عـلـىـ حـاجـتـهـ، نـعـيـشـ مـحـنـتـنـاـ مـعـاـ كـمـاـ كـانـ النـبـيـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ وـأـصـحـابـهـ، وـحـيـنـهـ فـيـاـ لـذـةـ مـدـائـنـهـ عـلـىـ لـسـانـ الـمـلـائـكـةـ، وـيـاـ فـرـحـةـ تـسـجـيلـ وـصـفـنـاـ بـالـكـرـمـ وـالـجـوـدـ فـيـ صـفـفـهـ .

فـإـثـارـ منـ عـلـامـاتـ الرـحـمـةـ الـتـيـ توـصـلـ صـاحـبـهاـ إـلـىـ الـجـنـةـ وـيـعـقـبـ بـهـاـ مـنـ النـارـ، وـهـوـ عـطـاءـ لـاـ يـنـالـهـ إـلـاـ مـنـ كـانـ حـسـنـ الـظـنـ بالـلـهـ، وـحـظـيـ بالـقـرـبـ مـنـ اللـهـ ، وـسـارـ عـلـىـ الطـرـيقـ الـمـوـصـلـ إـلـىـ الـفـلـاحـ (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (الـحـشـرـ:9)

عناصر الخطبة:

1- معنى الإيثار والفرق بينه وبين السخاء والجود.

2- الإيثار صفة امتدح الله بها الأنصار.

3- من صور الإيثار:

- عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي طالب.
- الأشعريين في الغزو.
- إيثار يعجب الله منه.
- رسول الله يشرب الفضة من اللبن.

١- معنى الإيثار والفرق بينه وبين السخاء والجود:

الإيثار هو: أن تؤثر غيرك على نفسك بما أنت محتاج إليه.
ومراتب البذل والإنفاق ثلاثة كما ذكرها ابن القيم رحمه الله:
إحداها: أن لا ينفعك البذل، ولا يصعب عليه. فهو منزلة السخاء.
الثانية: أن يعطي الأكثر، ويُنفق لغيره شيئاً، أو يُنفق مثل ما أعطى. فهو الجود.
الثالثة: أن يؤثر غيره بالشيء مع حاجته إليه، وهو مرتبة الإيثار. مدارج السالكين 2/278

٢- الإيثار صفة امتحن الله بها الأنصار:

امتحن الله الأنصار على الإيثار فقال: (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (الحشر: 9)
أي يقدمون المزايا على حاجة أنفسهم، ويبذلون بالناس قبل أنفسهم في حال احتياجهم إلى ذلك.
وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (أفضل الصدقة جهد المقل) (رواه أبو داود وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير 1107)

وهذا المقام أعلى من حال الذين وصف الله تعالى بقوله: (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ) (الإنسان: 8)

وقوله: (وَاتَّى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ) (البقرة: 177)

فإن هؤلاء تصدقوا وهم يحبون ما تصدقوا به وقد لا يكون لهم حاجة إلى ما تصدقوا به، أما أولئك فقد آثروا على أنفسهم مع خصاهم حاجتهم إلى ما أنفقوه، وفي هذا يقول الله عزوجل: (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (الحشر: 9)

٣- من صور الإيثار:

- عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع: عن إبراهيم بن سعد، عن أبيه، عن جده، قال: قال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: (لَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ أَخَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَنِي وَبَنِيَّنَا سَعْدَ بْنَ الرَّبِيعِ: إِنِّي أَكْثُرُ الْأَنْصَارِ مَالًا، فَأَقْسِمُ لَكَ نَصْفَ مَالِي، وَأَنْظُرُ أَيَّ زَوْجَتِي هُوَيْتَ نَزَّلْتُ لَكَ عَنْهَا، فَإِذَا حَلَّتْ، تَزَوَّجْتَهَا، قَالَ: فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: لَا حَاجَةَ لِي فِي ذَلِكَ هَلْ مِنْ سُوقٍ فِيهِ تِجَارَةً؟ قَالَ: سُوقٌ قَيْنَقَاعٌ، قَالَ: فَغَدَا إِلَيْهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، فَأَتَى بِأَقْطِيلِ وَسَمْنِ، قَالَ: ثُمَّ تَابَعَ الْعُدُوَّ، فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَلَيْهِ أَثْرُ صُفْرَةٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَزَوَّجْتَ؟»، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «وَمَنْ؟»، قَالَ: امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، قَالَ: «كَمْ سُقْتَ؟»، قَالَ: زِنَةٌ تَوَاهٌ مِنْ ذَهَبٍ - أَوْ تَوَاهٌ مِنْ ذَهَبٍ -، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَوْلَمْ وَلَوْ بِشَاءِ) (البخاري: 2048)

قال سعد بن الربيع: إنني أكثر الأنصار مالاً، فأقسم لك نصف مالي؟!!

لم يقل: إنني ذو مال.

ولم يقل: إنني ذو مال قليل.

ولم يقل: إن علي ديوناً كثيرة؛ ليصد بذلك أخاه.

أوليس هذا - مع الأسف - شأننا وحالنا؟!

فأقسم لك نصف مالي؟!!

لأنه يريد أن يعطيه دراهم محدودة أو دنانير معدودة! ولكن نصف المال!

يا للعجب من هذه النفوس!

إنها نفوسٌ غير النفوس التي نعرف ونشاهد..

نفوسٌ استمدت هذا الخلق الزكيَّ من كتاب الله تعالى..

إنَّهَا الْأَخْوَةُ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .. أَخْوَةُ الدِّينِ ..

وأيُّ أخْوَةٌ أَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ الْأَخْوَةِ؟

أيُّ الْأَلْفَةٍ أَحْسَنُ مِنْ هَذِهِ الْأَلْفَةِ؟

أيُّ مُحَبَّةٍ تفوق هذه المحبة؟

"وانظر أيَّ زوجتي هويت؛ نزلتُ لك عنها، فإذا حلَّتْ؛ تزوجْتها".

هل قائلٌ هذا من البشر؟!

هل هذه القصة حصلت في عالم الواقع؟!

شعورٌ باللَّذَّةِ وهو يفرجُ همَّ أخيه..

إحساسٌ بالمرتبةِ وهو ينفسُ كربَ صاحبه..

قال له عبدُ الرحمن: (لا حاجةٌ لي في ذلك، هل من سوقٍ فيه تجارة؟) قال: سوقٌ قينقاع.

لم يستغلَ عبدُ الرحمن بن عوف رضي الله عنه أخاه، ولم يقلُ في نفسه: إنَّ أخِي أكثر الناس مالاً، فلو أخذتَ شيئاً منه؛ لاما ضررَه!

لم يقبل المال، فكيف به يقبل أهله؟!

إثمار من سعد بن الربيع يقابل عفة من عبد الرحمن بن عوف، يا لها من نفوس عفيفة نقية طاهرة، صاغها القرآن ورباها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

- الأشعيين في الغزو:

وأما في الجهاد فقد أصابهم مثل ما أصابنا اليوم؛ خوفٌ وجوعٌ ونقصٌ من الأموال والأنفس والثمرات؛ لكنهم كانوا إخوة متحابين متراحمين كالجسد الواحد، يشد بعضهم أزر بعضٍ في المحن حتى يخرجوا منها جميعاً، ويا ليت شعري كيف يخرجون من محنتهم؟!

لقد خرجوا بشهادة رسول الله لهم: (فَهُمْ مِنِي وَأَنَا مِنْهُمْ)

عن أبي موسى، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ الْأَشْعَرِيَّنَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الغَزْوِ، أَوْ قَلَ طَعَامُ عِبَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ جَمَعُوا

ما كان عندهم في ثوبٍ واحدٍ، ثم اقتسموا بينهم في إناءٍ واحدٍ بالسوية، فهم متى وأنا متهم) (البخاري/2486، ومسلم/2500)

(أرملا) من الإرمال وهو فناء الزاد وقلة الطعام أصله من الرمل لأنهم لصقوا بالرمل من القلة.
(في إناء واحد) أي اقتسموه بمكial واحد حتى لا يتميز بعضهم عن بعض.

والأشعريون هؤلاء كانوا ممن أتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك يطلبون ظهراً ليخرجوا معه للجهاد، فلم يجد لهم رسول الله ظهراً؛ فتولوا وأعينهم تفيس من الدمع حزناً، فدعاهم رسول الله وأمن لهم ثلاثة من الإبل. (انظر تفسير القرطبي 8/228)

يا لها من نفوسٍ ما أزاكاها؛ فقرُّ عوز ومع ذلك إيثارٌ وبكاءً لعدم خروجهم للجهاد.

- إيثار يعجب الله منه:

عن أبي هريرة، قال: (جاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: إِنِّي مَجْهُودٌ، فَأَرْسَلَ إِلَى بَعْضِ نِسَائِهِ، فَقَالَتْ: وَالَّذِي يَعْكِبُ بِالْحَقِّ، مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أُخْرَى، فَقَالَتْ مِثْلُ ذَلِكَ، حَتَّى قُلَّ كُلُّهُنَّ مِثْلُ ذَلِكَ: لَا، وَالَّذِي يَعْكِبُ بِالْحَقِّ، مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ، فَقَالَ: مَنْ يُضِيفُ هَذَا الَّلَّيْلَةَ رَحْمَةً اللَّهِ؟، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَصْنَارِ، فَقَالَ: أَنَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَنْطَلَقَ إِلَيْهِ رَحْلِهِ، فَقَالَ لِمَرْأَتِهِ: هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: لَا إِلَّا قُوتُ صَبِيَّانِي، قَالَ: فَعَلَّلِيهِمْ بِشَيْءٍ، فَإِذَا دَخَلَ ضَيْفُنَا فَأَطْفَئَ السَّرَاجَ، وَأَرْبَيْهُ أَنَا نَأْكُلُ، فَإِذَا أَهْوَى لِيَأْكُلُ، فَقُومِي إِلَى السَّرَاجِ حَتَّى تُطْفَئِيهِ، قَالَ: فَقَدُوا وَأَكَلُ الضَّيْفَ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَّاً عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: قَدْ عَجِبَ اللَّهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا الظَّلِيلَةَ) (مسلم/2054)

تأمل أخي المسلم: تسعه أبيات للنبي صلى الله عليه وسلم ليس فيها إلا ماء!!

حتى نعلم أنَّ الذي أصابنا قد أصابهم أشد منه وأعظم، فهم ما مواصلوا إلى ما وصلوا إليه من علوٍ في الدنيا ورفعه في الآخرة بالراحة والنعيم، وإنما بالكد والتعب مع الصبر والإيثار.

- رسول الله يشرب الفضة:

عن أبي هريرة، قال: (اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، إِنْ كُنْتُ لَأَعْتَمِدُ بِكَبِيدي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْجُوعِ، وَإِنْ كُنْتُ لَأَشْدُ الْحَجَرَ عَلَى بَطْنِي مِنَ الْجُوعِ، وَلَقَدْ قَعَدْتُ يَوْمًا عَلَى طَرِيقِهِمُ الَّذِي يَخْرُجُونَ مِنْهُ، فَمَرَّ أَبُو بَكْرٍ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ آيَةِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، مَا سَأَلْتُهُ إِلَّا لِيُشْبِعَنِي، فَمَرَّ وَلَمْ يَفْعَلْ، ثُمَّ مَرَّ بِي عُمَرٌ، وَعَرَفَ مَا فِي نَفْسِي وَمَا فِي وَجْهِي، ثُمَّ قَالَ: «يَا أَبَا هِرَّ» قُلْتُ: لَبَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَتَبَسَّمَ حِينَ رَأَنِي، وَعَرَفَ مَا فِي نَفْسِي وَمَا فِي وَجْهِي، ثُمَّ قَالَ: «يَا أَبَا هِرَّ» قُلْتُ: لَبَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «الْحَقُّ وَمَضَى فَتَبَعَهُ، فَدَخَلَ، فَوَجَدَ لَبَنًا فِي قَدَحٍ، فَقَالَ: «مَنْ أَيْنَ هَذَا الْلَّبَنُ؟» قَالُوا: أَهْدَاهُ لَكَ فُلَانٌ أَوْ فُلَانَةُ، قَالَ: «أَبَا هِرَّ» قُلْتُ: لَبَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «الْحَقُّ إِلَى أَهْلِ الصَّفَةِ فَادْعُهُمْ لِي» قَالَ: وَأَهْلُ الصَّفَةِ أَضْيَافُ الْإِسْلَامِ، لَا يَأْوُونَ إِلَى أَهْلٍ وَلَا مَالٍ وَلَا عَلَى أَحَدٍ، إِذَا أَتَتْهُ صَدَقَةٌ بَعَثَتْ بِهَا إِلَيْهِمْ وَلَمْ يَتَنَاهُ مِنْهَا شَيْئاً، وَإِذَا أَتَتْهُ هَبَةً أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ وَأَصَابَتْهُمْ فِيهَا، فَسَاعَتِي ذَلِكَ، قُلْتُ: وَمَا هَذَا الْلَّبَنُ فِي أَهْلِ الصَّفَةِ، كُنْتُ أَحَقُّ أَنْ أُصِيبَ مِنْ هَذَا الْلَّبَنِ شَرِيكَهُ أَتَقَوَّى بِهَا، فَإِذَا جَاءَ أَمْرَنِي، فَكُنْتُ أَنَا أُعْطِيهِمْ، وَمَا عَسَى أَنْ يَلْغُغَنِي مِنْ هَذَا الْلَّبَنِ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُدُّ، فَأَتَيْتُهُمْ فَدَعَوْتُهُمْ [ص: 97] فَأَقْبَلُوا، فَاسْتَأْذَنُوا فَأَذِنَ لَهُمْ، وَأَخْذُوا مَجَالِسَهُمْ مِنَ الْبَيْتِ، قَالَ: «يَا أَبَا هِرَّ» قُلْتُ: لَبَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «خُذْ فَأَعْطِهِمْ» قَالَ: فَأَخْذَتُ الْقَدَحَ، فَجَعَلْتُ أَعْطِيهِ الرَّجُلَ فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرْوَى، ثُمَّ يَرْدُ عَلَيَ الْقَدَحَ، فَأَعْطَيْهِ الرَّجُلَ فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرْوَى، ثُمَّ يَرْدُ عَلَيَ الْقَدَحَ، حَتَّى انتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ رَوَى الْقَوْمُ كُلُّهُمْ، فَأَخْذَ الْقَدَحَ فَوَضَعَهُ عَلَى يَدِهِ، فَنَظَرَ إِلَيَ فَتَبَسَّمَ، فَقَالَ: «أَبَا هِرَّ» قُلْتُ: لَبَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «بَقِيتُ أَنَا وَأَنْتَ» قُلْتُ: صَدَقْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «أَقْعُدْ فَأَشْرِبْ» فَقَعَدْتُ فَشَرَبْتُ، فَقَالَ:

«اشربْ» فَشَرِبْتُ، فَمَا زَالَ يَقُولُ: «اشربْ» حَتَّى قُلْتُ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا أَجِدُ لَهُ مَسْكَأً، قَالَ: «فَأَرِنِي» فَأَعْطَيْتُهُ الْقَدَحَ، فَحَمَدَ اللَّهَ وَسَمَّى وَشَرَبَ الْفَضْلَةَ (البخاري/6452)

فمن لي بهذا المتأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لا يأكل حتى يشعـ جـيـاعـ المـسـلمـينـ.

لو صرنا كما كانوا لارتفاعـناـ كما ارتفاعـواـ..

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) (الأحزاب: 21)

المصادر: